الإناء الأفريقى والهوية الأفريقي

د/ هدى على مدنى

مدير إدارة التعليم المجتمعى

مديرية التربية والتعليم بالجيزة

وزارة التربية والتعليم

drhodamadany19@yahoo.com

مقدمة:

إن الفن الأفريقى هو فن متميز بذاته وله طابعه الخاص فهو أحد الفنون التى وصفت بالبدائية ونشاهد ذلك على جدران الكهوف والمأوى الصخرية المنتشرة فى الصحارى الأفريقية مثل رسومات على جدران صخور هرجسيا بالصومال شكل (1)، وقد ساعدت الظروف الطبيعية للمناخ الأفريقى على حفظ الرسوم المتنوعة والتى تعد سجلاً وثائقياً يقص حياة الإنسان الأفريقى التى عاشها من الآف السنين, ومن أقدم ما عثر عليه فى أفريقيا المدارية بنيجيريا بعض الأدوات الفنية وتيجان وتماثيل ومقاعد حجرية تعود إلى حضارة نوك* والفخاريات المتنوعة الأحجام والقياسات والأشكال، فالفن الأفريقى يتميز بالبساطة والفطرية والتلقائية وصدق التعبير, هو فن بكر عفوى خالى من الصراعات وتعقيدات الحياة المتقدمة والتطورات التكنولوجية, وهو من الفنون العضوية, الحيوية, الحسية, التى لها سحرها الخاص وأهميتها الفنية

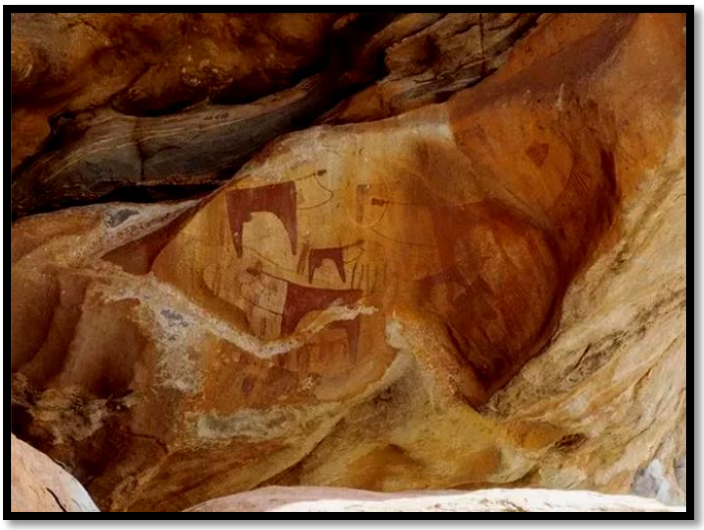

شكل (1)
رسوم على جدران صخور
هرجسيا أرض الصومال

إتجه الفنان الأفريقى إلى عدة مجالات فنية متنوعة مثل: النحت وصناعة التماثيل بأحجامها المتنوعة، الأقنعة المصنوعة من مواد متنوعة كالطين والحجر والمعادن النفيسة والعاج، الخزف وصناعة الأوانى الفخارية والتى لها عدة أغراض مختلفة بعضها خاص بخدمة المجتمع والبعض الآخر يستخدم فى الطقوس الدينية والعقائدية ورغبته فى الإرتباط بالقوة الروحية الكامنة خلف عالم المرئيات وبعضها إتخذ للزينة والترف, وصناعه الفخار من الأمور

*** حضارة نـوك:**

هى حضارة ظهرت منذ 500 ق. م فى سهول و وسط نيجيريا حيث كان الصناع المهرة يستخدمون تقنية النقش وصناعة الفخار فى نحت روؤس الاشخاص والحيوانات من الطين ثم يجففونه ويحرقونه.

الهامة جداً فى حياة الخزاف الأفريقى, وهى من المهام الموكلة إلى المرأة الأفريقية, لما لديها من خبرات متراكمة ومتوراثة عبر الأجيال.

ولقد تأثر الفنان الأفريقى عند إنتاجه للإناء بعدة عوامل منها: السحر, والأساطير, والقصص القديمة, والأمثال التى تهتم بتراثهم القبلى القديم والتى تعبر عن الهوية الأفريقية, هذه الهوية التى تنبع وتتأصل من ثقافتهم وواقع حياتهم الإجتماعية، فهى منهج ودستور لجميع أوجه النشاط الذى يمارسه أفراد المجتمع الأفريقى، فنلاحظ أن الخزاف الأفريقى يستخدم رموز من البيئة المحيطة مثل:

- الرموز الطبيعية: وهى متمثلة فى (الإنسان, الحيوان, الطيور, الحشرات)
- الرموز الهندسية: وهى (المثلثات, المربعات, المعينات, الدوائر, والخطوط المتعرجة أو المستقيمة)

هذه الرموز تعبر عن الهوية الأفريقية والثقافية والفنية، كما أنها ترتبط بالعقائد والديانات فى المجتمع الأفريقى فهى بمثابة أبجديات التشكيل والإبداع فى الإناء الأفريقى, كما أن لها أثرها الملحوظ على الإناء, فالدين والإناء يكونان علاقة قوية تؤكد أن أصل الإناء الأفريقى نابع من مجال الدين والسحر.

ومما لا شك فيه أن الهوية الأفريقية والإناء الأفريقى هما صورة حية لثقافة المجتمع الأفريقى، وأحد الدعائم المؤثرة فى محتوى الإبداع الفنى، حيث أنه يرتبط إرتباط كلى بالموروثات والعقائد والتقاليد الأفريقية, ويتضح ذلك فى أوانى فخارية ترتبط بفكر هذا المجتمع بحيث يتناسب العمل الفنى مع المضمون الذى يعتقده الخزاف الأفريقى، فالفن يستخدم لتوضيح الهوية الشخصية والثقافية للمجتمع.

الخزف الأفريقى:

إن الإناء الأفريقي ليس ترفاً وإنما له ضرورة ووظيفة إجتماعية تؤكد الهوية الثقافية للقارة الأفريقية فهو أحد أهم الفنون المتوارثة، كما أن له عدة إستخدامات هى: الطهى، وأوعية رفات الميت، ومصابيح الزيت الفخارية، وأواني فخارية تستخدم لتخزين الطعام، وأوانى تستخدم لصبغ النسيج وإشعال الأعشاب ذات الرائحة، وأواني لحفظ المياه, أما الأوانى الضخمة فتستخدم لتخزين الحبوب، ومن هذا المنطلق إكتسبت الآنية الأفريقية مكانتها من حيث كونها أعمالاً فنية تؤدى دوراً وظيفياً فى المجتمع الأفريقى حيث تتسارع القبائل المختلفة المذاهب والأعراف فى إبداع أوانى تؤكد على هوية كل قبيلة, كما أنها تعبير قوى عن حياة الفنان الأفريقى وأساطيره وطقوسه السحرية ورموزه وزخارفه ذات المدلولات الرمزية، حيث أن الزخارف هى عنصر هام يدخل فى مجال الخزف الأفريقي, فالزخارف بسيطة وأقل إنتظاما, وفى أغلب الأحيان تكون الزخارف لحيوانات مجردة سحالى، وثعابين، وسلاحف, كما أنها زخارف متدرجة من التصوير الطبيعى إلى الإتجاه التجريدى وهذا يعنى أنها لم تصمم لمجرد أن تكون مصدر للمتعة وحسب, وإنما قد يكون لها غرض دينى أو ترمز لشئ ما, ودليل على التميز الإجتماعي والثقافى.

إذا كان الرجل الأفريقى أبدع فى منحوتاته, فإن المرأة الأفريقية قد أبدعت فى مجال الخزف وصناعة الأوانى الفخارية, وإهتموا بتحسين مرونة الطين وإزالة العناصر غير النقية منها, وذلك من أجل الحصول على أفضل الأوانى الفخارية، ويتم صقل سطح الآنية بإمرار أوراق النباتات على سطح الإناء قبل أن يجف (مرحلة الجلد Leather Stage), وتقوم النساء فى (ديهومى Dahomey) بدمج الطين بأكسيد الحديد الأحمر أو تلوين أوانيهم بألوان مختلفة,

أما سيدات (كانيورى Kanuri) من نيجيريا الشرقية فيقومون بدمج الطين بالأكسيد الأحمر والأصفر وفحم الحطب مستخدمين زيت الفستق كقاعدة، وبعد جفاف الأوانى تتم عملية الحريق بأساليب بسيطة تلائم فطرية وبساطة الفنان الأفريقى من خلال عملية حريق الحفرة, وهى أحد طرق الحرق البدائية, والتى ظهرت قديماً فى القبائل الأفريقية, وإستخدم فيها الفنان الافريقى خامات بيئية طبيعية تعطى قيمة فنية فهى منظومة متكاملة تجعل من هذا الإناء البسيط عمل فنى.

أهم خصائص الخزف الأفريقى:

- قدم هذا الفن واستمرار إبداعة عبر العصور.
- تمسك الفنان الإفريقى بالتقاليد الفنية والتزامه بتلبية متطلبات مجتمعه المختلفة، والدليل على ذلك أن أغلب الأعمال الخزفية كانت لها إستخدامات نفعية.
- تقدير المجتمع الأفريقى لفنانيهم ومواهبهم وإبداعاتهم الفنية، ويتضح ذلك من إهتمام الخزاف الأفريقى بالإناء وزخرفته تبعآ لوظيفته الإجتماعية أوالدينية أوالطبية وغيرها.
- إسهامات المرأة الأفريقية ودورها الهام فى عملية الإبداع الفنى، خاصة فى مجال الخزف وما لديها من خبرات متراكمة توارثتها عبر الأجيال
- صدق الفن الإفريقى النابع من تحقيقه واقع المعايشة اليومية، وعفويته التى هى نتاج خبرات تراكمية تنتقل بين الأجيال دون مجالات للتعليم المقنن ولكن بالممارسة، وبساطته التى تتضح فى التجريدية العميقة للخطوط الأشكال المرسومة، وأصالته الواضحة فى الحفاظ الدائم على الهوية فى الموروث الأفريقى من خلال الوحدات التشكيلية والزخرفية والتى تتضمن أغلب أعماله الفنية، مع محاولات التجديد والإبتكار فى ترتيب تلك الأشكال على المسطحات المختلفة، وبراءته كفن لا يعتمد على طرز فنية سبقته أوعاصرته، وتتضح لغته الجمالية من سرعة التعرف على وجوده، وإستخدامه لرموز فنية خاصة به، ولايخفى على المشاهد المتخصص أوالعادى أن هناك نوع من الإشعاع الخاص بالتأثيرات الروحية النابعة من كل أشكال الفنون الأفريقية عامة وبخاصة الأعمال الخزفية .
- عدم إهتمامه بالمنظور والنسب التشريحية والتفاصيل، وهذا واضح وجلى فأغلب أعمال خزافى أفريقيا تجمع بين الجمالية والنفعية .
- زهد الخزاف الأفريقى فى تخليد إسمه الشخصى، فلا توجد أعمال موقعه من فنان أفريقى إلا من هاجر من أفريقيا إلى أوروبا وأمريكا.

- نجاح الفنان الأفريقى فى إبداع وإنتاج روائع خزفية بأدوات بسيطة من صنعه، فأغلب الأعمال الفنية منفذة بأدوات يدوية بسيطة لا تدخل فيها أى ميكنة تذكر، وهو ما يضيف عليها الكثير من القيم الجمالية والتشكيلية.
- يعبر الخزف الأفريقى عن فضيلة العمل اليدوى والإعتزاز الوطنى والرغبة فى الإستمرار الحضارى، فأغلب الخزافين الحرفيين يقومون على العمل بالمنتجات الفخارية والتى هى مصدر رزقهم، وما يحتويه الإناء من زخارف ورسوم هى إستمرار لحضارة زخرفية ممتدة من آلاف السنين ترتبط بطقوس دينية أو عقائدية أورقصات إيقاعية صاخبة ومميزة.

الخصائص الجمالية للإناء الأفريقى :

لكل فن من الفنون جمال يختص به و قواعد وأصول، هو ثمرة جهود السابقين في مجال الجمال الفني، ولقد قام علماء الجمال بالدراسة والتحليل لإستخرج عناصر الجمال وعوامل الإبداع فى الإناء الخزفى، كما قام بعض الخزافين من أصحاب الموهبة والكفاية الحقيقية بتقديم أعمال فنية جديدة قد تخضع للقواعد والنظريات السابقة وأعمال آخرى تنشد التجديد والإبتكار مع الحفاظ على هويته الثقافية ونقل القيم الجمالية والفنية بحيث تتوطد الإتجاهات القديمة مع الإتجاهات الجديدة، والخزف الأفريقى يمتاز بخصائص جمالية ترتبط إرتباط وثيق بفلسفه الخزاف الأفريقى وأفكاره ومعتقداته الدينية, حيث أنه بسط وعدل وغير من أشكال أوانيه الفخارية وقام بتوزيع مفرداته التشكيلية لتتناسب مع الغرض المصنوع من أجله الإناء سواء كان دينى أو دنيوى, وهذا يتضح فى شكل (2).

شكل (2)
إناء أفريقى من الفخار
قبيلة باغندا – أوغندا
أفريقيا الوسطى
الأبعاد:22 طول × 26عرض سم
منتصف القرن الـ 20 الميلادى

إناء يمثل مكانه رئيسية ووظيفة نفعية لدى المجتمع الأفريقى، فهو يستخدم فى المناسبات الإجتماعية والإحتفالات القبلية، مثل تنصيب القائد أو الزعيم الجديد، يلاحظ إختلاف شكل قاعدة الإناء عن باقى أشكال الأوانى الآخرى المعتادة، فلقد جمع الخزاف الأفريقى بين القيم التعبيرية والقيم الوظيفية، المتمثلة فى القوة البنائية والتشكيلية للعمل الفنى، فالشكل يعبر عن الوظيفة ويتفق مع الفكرة الإبتكارية للإناء.

أشهر الخزافين الأفارقة قديماً وحديثاً:

إهتم الفنانين القدماء والمعاصرين بالفنون التشكيلية الأفريقية وبخاصة الخزف وشكل الإناء الأفريقى البدائى، الذى أسهم وآثر على الحركة الفنية الحديثة وأصبح أحد المصادر الفكرية والفنية التى يتم بثها للأجيال المتلاحقة، حيث يسلط الفنان الضوء على هوية المجتمع الأفريقى البدائى من خلال فنونه وأعماله الخزفية التى يتضح فيها ثقافة مجتمعه وتقاليده، فالفنان يستخدم الفن للتعبير عن هوية مجتمعه وإنجازات الأسلاف والقدماء الذين ألهموهم النظر للعالم المحيط حولهم .

ديف بوتر Dave Potter:

هو فنان أفريقي الأصل ولد فى القرن التاسع عشر، ولقد وقع تحت يد تجار العبيد فبعد أن كان حراً أصبح عبداً، وهو من العبيد الذين إستطاعوا الهرب ممن يمتلكونهم, إن ديف بوتر من العبيد الذين حاربوا من أجل الحصول على حريتهم ونتيجة لهذا فقد ساقه فى حادث السكك الحديدية بأمريكا أثناء محاولاته الهرب من تجار الرق والعبيد، نادراً ما نسمع عن عبد إستطاع ان يجعل لنفسه إسم فى ظل العبودية والقهر، لكن (ديف) كان فناناً إستثنائياً.
وبدأ (ديف) العمل على عجلة الخزاف وشكل أوانيه الفخارية، وظهرت إبداعاته الفنية فى أوانى التخزين الضخمة التى يصل ارتفاعها حوالى 65سم طولاً، وعرضها حوالى 180سم، وأغلب أوانيه إما مصقولة أومطلية بطلاء زجاجى ملون أوشفاف.
وأهم ما يميز أعمال (ديف) الخزفية هو توقيعه أسفل فوهة الإناء، حيث يقوم بكتابة إسمه وتاريخ إنتاج عمله الفنى، وأحياناً آخرى يكتب حكمة أوقول مأثور ثم يوقع بإسمه, شكل (3).

شكل (3)
ديف بوتر – 1858

إناء كروى الشكل يستخدم لحفظ المياه، وهو من الأشكال القليلة والنادرة التى يقوم الفنان (ديف) بتنفيذها، حيث يلاحظ مهارة الفنان فى إستخدام البطانات الملونة، فالأرضية لونها أصفر فاتح، وعليها تجازيعات رخامية بنية اللون لإضافة الظل والنور كأحد عناصر التشكيل فى تجسيم الشكل، ثم تم تطبيق الطلاء الزجاجى الشفاف على الإناء لإعطائه لمعة خفيفة، يلاحظ ثقل الطلاء الزجاجى الشفاف، والفوهة ضيقة لكى تتناسب مع الوظيفة، وأسفل الفوهة يلاحظ توقيع (ديف) والتاريخ وكذلك أول حرفين لسيده (مايلز لويس) "ديف 6 ديسمبر 1858 Lm."

لادى كوالى LadiKwali:

هى خزافة أفريقية الأصل من دولة نيجيريا ولدت عام 1925 بقرية تسمى كوالى فى منطقة جوالى شمال نيجيريا، تعلمت صناعة الأوانى الفخارية وهى فى مرحلة الطفولة، حيث إن صناعة الفخار مهنة شائعة بين السيدات الأفريقيات، وعندما أرسلت الحكومة البريطانية (مايكل كاردو) عام 1950 إلى مدينة أبوجا – نيجيريا لإنشاء مركز لصناعة الفخار، أراد أن يضم (لادى كوالى) إلى فريق عمله، ولكنها رفضت حتى نهاية عام 1954، ولكنإستطاع (كاردو) إقنعها بأن تاتى للعمل معه لأنه كان يعلم حبها الشديد لصناعة الفخار, شكل (4).

طبق مطلى بطلاء زجاجى أزرق اللون، والزخارف حيوانية وهندسية منفذة بإسلوب الرسم بالطلاء الزجاجى الأبيض اللون، وفى منتصف الطبق زخارف هندسية منتظمة عبارة عن خطوط طولية وأنصاف دوائر متسلسلة ومترابطة، يلاحظ أن الخزافة دمجت الزخارف الحيوانية والهندسية وقامت بتنسيقهم داخل العمل الخزفى.

شكل (4)
الفنانة لادى كوالى
الأبعاد: القطر 27سم

الخزافة جلوريا سسالى Gloria Ssali:

فنانة أفريقية الأصل ولدت عام 1971 بدولة أوغندا إحدى دول شرق أفريقيا، ثم إنتقلت بعد ذلك إلى كينيا، وفى سن الحادية عشر إنتقلت هى وأسرتها للعيش فى المملكة المتحدة، درست فن الخزف فى المدرسة الثانوية بالمملكة المتحدة، وبعد ذلك إلتحقت بكلية (هارو ويلد Harrow Weald) وهى كلية محلية، بعد ذلك تلقت تدريب على أعمال الخزف والسيراميك، على يد أحد الخزافين الذين تحمسوا لأعمالها الفنية، ولقد إستمرت (جلوريا) تعمل فى هذه الكلية حتى يومنا هذا, شكل (5– أ، ب).

شكل (5– أ)

شكل (5– أ، ب)
الفنانة جلوريا سسالى – إفلاس
الأبعاد: الطول46 سم

شكل (5– ب)

إناء من الفخار تم تطبيق البطانات الملونة عليه ثم تم طلائه بطلاء زجاجى شفاف، الفوهة مبتكرة عبارة عن سوسته مفتوحة وكأنها سمكة قرش تفتح فمها لتلتهم كل شيء، وبجوارها قفل متصل بأربع حلقات من السلاسل، وفى شكل (5– ب) مجموعة من الأحزمة الملفوفة حول الإناء، وعند النظر إلي الفوهة يلاحظ أنها دائرية الشكل من الأمام، ومن الخلف شكل السوستة المفتوحة كأنه أذن حيوان الوطواط، وعينيه تتمثلان في الدائرتين البارزتين ذات اللون الأسود، فالفنانة إستخدمت تفاصيل ورموز كثيرة لكي تعكس لنا حالة الركود الإقتصادي في العالم، ولذلك فالإناء غنى بالملامس التى تم صياغتها بإسلوب معاصر للتعبير بواقعية عن أزمات العالم المادية، فالشكل يحمل قيماً تعبيرية رمزية قوية.

ومما لا شك فيه أن الإناء الأفريقى هو عمل يوضح وحدة الهوية الأفريقية، فالثقافة المحلية الأفريقية تعتمد على الوحدة وتجمع بين التكامل بين العناصر الفنية والمصالح المشتركة والتنوع فى الإنتاج، فالإناء الأفريقى عمل فنى متكامل، له تاريخه وفلسفته ورموزه ووظيفته الإجتماعية, ويتمتع بقيم تشكيلية وتعبيرية ورمزية وتقنية, بالإضافة إلى زخارفه البسيطة المعبرة عن فكر وثقافة مجتمعه, فالخزف الأفريقى هو مرآة المجتمع الإفريقى فى مزاياه الخلقية ونظرته الفلسفية، فهو يمثل رؤية واضحة ومقننة خاصة بحياة الإنسان الأفريقى اليومية.